رسالة الشيخ محمد رضا المظفر (اراء صريحة)

عرض وتحليل

الأستاذ الدكتور
عبد الامير كاظم زاهد
رئيس مركز دراسات الكوفة

المبدعون و الرواد استثناء في المعادلة التي تحكم الانسان والفكر و الوجود المعرفي التاريخي لذلك تتميز حياة الرواد والمبدعين والمجددين في الغالب بالحركة النوعية المميزة، فازمانها مواطنها ميدانا للقلق المعرفي والهم التجديدي، فحياتهم جميعا يمكن تلمسها من خلال حوارات الإقناع، أو حوارات المواجهة مع المتمسكين بالسائد والذين ربما يعجزون ذهنيا عن تلمس إشكالية عدم جدوى هذا السائد. أو يعجزون إذا أدركوا تلك الإشكالية من وضع البدائل، بل أحيانا من فهم البدائل أو تفهمها.

- والشيخ محمد رضا المظفر واحد من أولئك الرواد الافذاذ، فقد ولد في مطلع القرن العشرين (١٩٠٤) في مدينة النجف الاشرف و في هذا التوقيت بدأ التطلع الفقهي الجديد في النجف يخرج عن مدارج الرسائل العملية المعتادة، فالمدينة صارت منشغلة مثلاً بالادلة على تحريم التنباك بالاستدلالات المتقابلة بين اصحاب نظرية (المشروطة: الحكومة الدستورية) والمتمسكين بنظرية (المستبدة: الملكية المطلقة) فالجو العام هو جو الحوار العلمي في أروقة الحوزة وهو جواً علمي استدلالي

- ومن جهة تشكيل شخصيته العلمية ونزعاته في التعامل مع المعرفة فإن أخاه المجتهد اللامع الشيخ محمد حسن المظفر المعروف بالعمق العلمي كان أول موجه له بحيث ترك بصماته التجديدية عليه،مما ساعده على تنشيط النزعة التجديدية عنده اضافة الى تأثيرات صاحب الآراء المبتكرة العالم الأصولي البارع الشيخ آغا ضياء العراقي(١) ثم الامام النائيني ثم الشيخ البجنوردي صاحب المعقول ومنظر القواعد

والأصول ثم الشيخ محمد حسين الأصفهاني، ان هذه النخبة المتميزة من العلماء هي التي صنعت شخصية المظفر ومؤسس كليتنا ولعلها هي التي نضجت نزعته نحو التعمق بالمعرفة وتوظيفها والنأي عن بذل الجهد للأغراض المعرفية الصرفة. كما هي عادة الكثير ممن سبقه أو عاصره.

- لم يقتصر الامر في اختيار دروسه التي على الفقه والأصول والفلسفة والكلام إنما شرع حاله حال المفكرين الذين يريدون ان تصنع كحالاتهم فأبدع في دراسة الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى، وهذه من تجليات الدمج بين العلوم السائدة والعلوم الصرفة

وقبل ان ينال درجة الاجتهاد ولم يزل عمره أربعة وثلاثون عاما بثلاث سنوات شرع - مع ثلة من أصحابه إلى تأسيس جمعية ثقافية سماها منتدى النشر، عام ١٩٣٥،في وقت لم يتبلور في مدينة النجف الاشرف وعي انشاء الجمعيات و المؤسسات الثقافية التي لا ترتبط بالحوزة العلمية ارتباطا شديدا مما يدلل أنه قد أدرك أن رؤيته التجديدية لا تجد طريقها للتطبيق إلا عن طريق الوسائل المؤسسية، وبعد سنوات ثلاث انتخب سكرتيرا عاما لها وهذا يدلل على التزامه الشديد ونشاطه في العمل بالجمعية، وبالفعل انتجت جمعية منتدى النشر (كلية) سميت بذات الاسم اولا.. ليدخل منها تجديدا على مناهج الحوزة، وتطويرا على طريقتها في نقل المعرفة، و الى جانب هذا المشروع كان يفكر جدياً باعادة (تأهيل وتدريب قرّاء المنبر الحسيني) ليكون هذا المنبر إحدى أهم وسائل إعادة تشكيل العقل الشيعي خاصة والعقل الاسلامي عامة..

ونظرة على مؤلفاته.. المنشورة: توصلك الى طبيعة التشكل العقلي للشيخ المظفر.

فهو رجل مهتم في إعادة قراءة تاريخ الإسلام السياسي والثقافي من خلال تحليله البارع في كتابه (السقيفة) وهامشها ولديه واهتمام بالغ ومدرسي في الجانب العقائدي ويظهر ذلك في كتابه (عقائد الإمامية)وفي وبحثه عن (علم الإمام)، ويترتب على اهتمامه بالعقائد التمكن من الفهم الفلسفي ويظهر ذلك من كتابه (محاضرات في الفلسفة) ودراسة في فلسفة ابن سينا، ودراسة في فلسفة صدر المتألهين،وهو بذلك يمهد

بذلك لتفكير عميق في المنهج فكان كتابه أصول الفقه، وكتابه المنطق ودراستيه عن الشيخ الطوسي وصاحب الجواهر (عندما تناول منهجهما) كلّ على انفراد ومثلها دراسته عن النراقي والغروي الأ صفهاني وتعليقته على رسائل الشيخ الأنصاري كل تلك الدراسات التي انشغل بها الشيخ المظفر ليحقق ذاته المعرفية و ذاته المنهجية ،ورؤاه للحاضر والمستقبل.. التي تسهم في الحفريات المعرفية..

مما تقدم: يظهر لك أن عقل المظفر كان عقلاً عقائدياً فلسفياً منهجياً تنظيرياً عقل، يفهم الفقه والتاريخ والتفسير والواقع والمستقبل على أسس معيارية لذلك اختار أن يدخل مختارا ميدان إعادة صياغة المتون الفقهية والأصولية لاسيما متن الدرس المنطقي ليحقق واحدا من أهدافه وهو إصلاح برامج الدرس الحوزوي لقد اعتدادت حوزة النجف ان تدرس في علم المنطق حاشية الملا عبد الله على التهذيب او كتاب تحرير القواعد المنطقية في شرح الراسلة الهاشمية لقطب الدين الرازي ،او شرح الشمسية للقزويني و كل هذه الشروح على نصوص منطقية قديمة وارجوازات شعرية تضمنت قواعد منطق ارسطو فاستبدلها بكتابه الاكاديمي الرصين (المنطق).

و في مجال الفلسفة :فان الطلبة يدرسون شرح منظومة السبزواري فكتب محاضرات في غاية الثراء في مجال الفلسفة الاسلامية .

وفي علم الاصول :فان الطالب الحوزوي يبدأ بدراسة (معالم الدين) وهو كتاب في علم الاصول من تاليف الشيخ حسن نجل الشهيد الثاني فابدله بكتابه الجامع للمباحث الاصولية (اصول الفقه).

لقد صاغ المظفر انجازاته الثلاثة بعبارة اكاديمية جامعة موسعة وعميقة و اختزال فيها الجهد المدرسي اختزالاً ايجابياً معطاءً.

فقد كان من أجل أهدافه أن تكون للبلد نهضة علمية، ورغم اتساع افقه الفلسفي كان اعتزازه بالنجف اعتزازا لا يوصف لذلك كما يقول عنه بعض دارسيه انه(كثر حساده، وقل خصماؤه)، وظل يواجه نقد القوى التقليديه ويتحمل استخدامهم النفعي – للمفردات المقدسة سلاحا لإسقاط مشروعه التجديدي ، وفي ظني ان هذه

الحرب (غير المتكافئة) كانت وراء كتابته لرسالة صغيره أسماها (آراء صريحة).

بعض آراء الشيخ محمد رضا المظفر

- بدءاً ربما لا تكون الاراءا التي سنذكرها للشيخ المظفر هي مبتكراته وانفراداته بل نتذكرها بوصفها متبنياته الفكرية او الفقهية او الاصولية او هي ترجيحاته في حال تعدد الاقوال والنظريات
- يقول عنه دارسوه أن من أعزّ أمانيه أن يتفاهم المسلمون فيما بينهم ويسقطوا العصبيات والتطرف وسلوكيات الاقصاء وقد أوجب على المتمكن منهم وجوبا شرعيا وعقليا أن يعيد النظر والمراجعة العقلية لأصول اعتقاداته. بل ربما اوجب عليه إعادة النظر حتى بالتفاصيل العقدية كالقضاء والقدر والرجعة وغيرها حتي يجدد اليقينيات الكبرى وكانه يجد في هذه المراجعة دعوة لنقد الذات..

ولا يرى الشيخ أن المتمكن من المراجعة وإعادة الفحص يحق له تقليد الغير الا في التفاصيل المعقدة، معللا ذلك بأن مباحث القضاء والقدر مثلا لا يدركها إلا الأوحدي من الناس. ورغم ذلك زلت فيها أقدام الكثير من المتكلمين فلذلك يجمع الشيخ بين وجوب المراجعة و الاجتهاد وقبول التقليد فيما لا يقدر عليه ويرى ان المرجعة الذاتية هي الوسيلة الاقرب للتقريب فيقول (ليس شيء افضل في التقريب من تولي اهل كل عقيدة انفسهم كشف دفائنها وحقائقها[٣].

- يرى أن الشيعة والسنة - يشتركون في حب آل البيت (ع) وتمجيدهم. وعلى هذا المشترك يجب علينا أتباعهم ومن كلا الفريقين وهو المتعين اقتضاء، ذلك فأن المهمة الأبرز في الخلاف المذهبي بين المكونين هو اقناع الأطراف بالاقتداء منهج أهل البيت (ع)) في العقائد والاصول والفروع التفصيلية وعلى هذا يجب ان ترسم استراتيجيات الحوار الفكري و الاندماج المجتمعي.

في مجال القضايا الفقهية:

- لا يرى الشيخ المظفر وجوب تقليد الأعلم ويجزئ الرجوع إلى المجتهد الجامع للشرائط وان لم يكن

الاعلم ولا يرى أن تقليد الميت مجزٍ ابتداء.

- تشعر بعض نصوصه أنه يرى للفقيه العادل الجامع للشرائط الولاية العامة.

- **في مجال الأصول العامة للفقه:**

- إن لكل حكم سواء في نطاق العبادات و المعاملات مناطا ومتعلقا مرتبطا بالمصالح والمفاسد وإن لكل واقعة حكما واقعيا، وإن لم نستطع اكتشافه.
- لايرى الشيخ راي السيد المرتضى الذي يقصر الدلالة على أصالة الحقيقة، وأقر أن هذه المعالجة تصح في مجال الشك.
- نقد المظفر قاعدة الرشد في خلافهم وأعاد تفسيرها بما يكسبها مضمونا منطقيا.
- نقد قضية اللطف وآثارها في العقيدة وعلم الأصول.
- لا يعترف الشيخ المظفر بقياس الأولوية إذا كان الأخذ به للأولوية فقط، إلا أنه مقبول إذا عددناه من جزئيات فحوى الخطاب.
- يرى الشيخ أن التحديث والتطوير يحتاج إلى نزعة عقلية ومنهج نقدي وتخطيط سليم ومتابعة جادة.
- يدعو الشيخ المظفر بشدة وإصرار إلى اعتماد العقل والتأويل في تفسير النص القرآني متى اقتضى الحال ويجب استخدام النظر والدليل وقواعد المجاز.
- يرى ان منشأ الزامية الامر انه قضاء لحق المولوية و العبودية [٤]

آراء صريحة

معطيات تجربة المظفر

المدخل: تعد رسالته المسماة اراء صريحة وثيقة في غاية الأهمية وقد كتبها العلامة المجدد أستاذ الجيل الشيخ المظفر،ربما في ظروف قاسية املت عليه ان يكون صريحاً على الاقل مع نفسه

وتتكون من مقدمة وعدة مباحث والمباحث: هي

١- الصراحة ٢- الإخلاص

٣ - التشيع والحكومات

٤- العلماء والتقليد

٥- التشيع وقاعدة اللطف

٦- العلماء والعصر الحاضر.

فرق المظفر في المقدمة بين الحوار الداخلي وبين الخطاب: فتحدث الشيخ عن حالة ربما لا يعرفها إلا المبدعون وهي الكتابة للذات (الحوار الداخلي)، مقابل الكتابة للآخر (الخطاب) والكتابة للذات غالبا تبقى حبيسة هذه العلاقة (الذات والأنا) حتى يغيب عن الوجود أحد طرفيها (العقل المنظّر لها).

لذلك يقول المظفر (أحرر هذه الآراء الصريحة لنفسي وحدي ولا أرضى أن يقف عليها أحد في مدة حياتي).[٥]

ويحرص الشيخ المظفر على أن لا تبقى طي الكتمان إلى أبد الآبدين، فقد أجاز بعد وفاته أن يفعل بها من يتولاها ما تقتضيه الحكمة وهذا لفظ يتسع في عموميته، فربما جاز لمن يتولاها حتى نشرها مطبوعة وربما اقتضت الحكمة كتمانها.[٦]

لقد برر الشيخ المظفر بقاءها (ذاتية) في حياته، لخوفه من أن يعسر على الناس فهمها، ويتوهمون أن فيها قصداً، فيكون منهم له الجفاء (ولاسيما من سماهم (في محيطنا)!!، لأنه حريص على الاندماج الاجتماعي معهم عالما محترما. فهو يخشاهم على نفسه لئلا يسلبون جلالة علمه، وجهاده وفضيلته لمجرد أنهم لم يفهموا قصده في عبارته..

لقد كان لهذا التوجس تأثير بالغ على الأفكار الرائدة والمبتكرة للمجدد ، وربما كان ضاغطا مروعا لاحتباس الكثير من الإبداعات

ويسيطر على المظفر كما تفهم عبارته (قلق معرفي) بالغ الثقل. فهو لم يحسم انذاك : (هل في نشرها فائدة دينية و اجتماعية لكي يضحي لأجل تلك الفائدة بمصالحه لانها نافعة للغير، وإذا كان فيها فائدة، فهل هو مستعد للتضحية الجسيمة من أجلها) [٧]، لقد كان كل ذلك محل شك عند الشيخ المظفر رغم انه يملك تلك (الشخصية العملاقة المقتحمة للصعوبات) أن ثقل بقاء أفكار مهمة في السر يعجز غير المظفر عن حمله فلقد كتمه في اعماق نفسه لأنه مدافع باسل عن الحقيقة فيحاول أن يجد لنفسه

(متكئات) دينية للاستثناء، فيستند إلى التقية، ويصفها بأنها من ضرورات الإنسان وهي (جزء من القانون الطبيعي الكوني الاجتماعي السنني) فكما هي ضرورة من ضرورات الإنسان فهي أيضا شرط للاندماج بمجتمعه (أي مجتمع) لذلك فهو ينقد (الآخرين) الذين أحاطوا التقية بإطار من التشويه لأغراض مذهبية ووقعوا في تناقض صريح (ذلك أن الأئمة (ع) هم الذين مارسوها وهم في نفس الوقت أشخاص ورموز محترمون عند الطرفين (الشيعة والسنة) لذلك: جاء نقدهم للتقية مضطربا.[٨]

ثم ينتقل المظفر إلى - افتراضية أن يكون الإنسان متجردا عن المؤثرات والمسبقات وهو يناقش و يراجع العقائد ، فينكر المظفر حصول مثل هذا الأنموذج ويرى أن الإنسان بطبيعته يخضع إلى عوامل عدة منها عوامل العاطفة، والتقليد، والأوهام المنسوجة بمرور الأعوام، والآراء الموروثة، جازما أن من يظن في نفسه أنه قادر على التجريد فهو خاطئ، وكل ما يزعمه من تفكير حر مجرد ليس حقيقة كاملة الدقة - باستثناء الأنبياء والأوصياء والمصطفين، ولا يدخل في هذه العصمة حتى المجتهدين فالمجتهد - في المسائل الدينية يخضع للموروث ، وللخوف من أشياء متعددة المستويات.[٩]

وبهذه الأفكار ينتهي الشيخ المظفر من التمهيد الذي أسماه المقدمة للدخول على فصول الرسالة الخطية التي أسماها آراء صريحة،اتخذ موقفاً حذر فيه من الشك الذي يساوره من ان الانسان لا يستطيع عندما يفكر ان يتخلص من المؤثرات على الافكار الحرة لاسيما في القضايا الدينية ،و ما هو في نطاق التقليد اكثر عجزاً و اشار الى ضغط الآراء الموروثة لذلك لم يسم هذه للاوراق اراء حرة انما سماها اراء صريحة .

الصراحة

يقول الشيخ المظفر: الصراحة هي الاعتقاد بالحقيقة والبوح بها والعمل بمقتضاها وعدم اعتبار ما تجره من عواقب والملتزمون بالصراحة صنفان من الناس:

١- الأنبياء لأنهم أخذوا على أنفسهم غاية الاخلاص لإصلاح البشر.
٢- عموم المصلحين مع تفاوت بينهم في مقدار التحمل.

أما غالبية الناس فتغلب عليهم المجاملة والمداراة والخداع والمكاتمة وتختفي هذه الصراحة تحت مسمى (الحياء) و(الخجل) ويقر المظفر على نفسه أنه من هذا النوع المجامل. بالقول (لم أستطع أن أكون مصلحا وإن شاء البعض أن يسمني كذلك وشاهدي القوي فرضي لكتمان هذه الآراء الصريحة). [١٠]

يقول(و اما تسجيلي لها وهو خرق لكتمان فيأتي من رغبتي المكبوتة في الاصلاح [١١] و يحدد نطاق البحث في مجال الصراحة باستقصاء فلسفة المجاملة عند البشر بعض الشيء ودوافعها الطبيعية عندهم من ناحية واقعية ونفسية طرفة [١٢].

الاخلاص

أما البحث الثاني في رسالة آراء صريحة فكان عن:

الإخلاص وهو عرض سريع تغلب عليه السمة القيمية والإخلاقية

ففي مفهوم الإخلاص يقول أنه (التجرد في حب شيء) وليس هو المقدس ،انما المقدس ما نخلص له.

ويشير بهذا المقطع إلى (ظهور أنموذج الوطنية) مقابل الحمية الدينية أو المذهبية تلك الحمية المرتكزة على حب الوطن والتفاني من أجله والتي تحولت إلى تيار سياسي ومسلك إيديولوجي في عصره.

أما البحث الثالث فكان :

التشيع، وقاعدة اللطف

وفي هذا يظهر المنهج النقدي العقلاني: فإن المظفر يصرح أن عقيدة التشيع كلها تتبنى فلسفياً على قاعدة اللطف والتي تثبت به النبوة والامامة على العلماء الإجابة على إشكالين رئيسين:

الأول : هل البشر من غير المسلمين وهم (أضعاف) عدد المسلمين في العالم قد قامت عليهم الحجة وبلغوا بالرسالة بمقتضى قاعدة اللطف ثم غادروا الحق فاختاروا عدم الانقياد حتى يستحقون العذاب والحرب وهل كل هؤلاء سيعذبون يوم القيامة؟ ويشير إلى أن جوهر هذا السؤال ربما هو السبب في نفرة رجال الدين من الجغرافية التي تبين عدد دول العالم وعدد سكان تلك الدول الذي يظهر أن عدد غير المسلمين أكثر بكثير من المسلمين في العالم لكنهم تناسوا أن الصحف والإذاعات -اليوم-

لم توكل الأمر إلى كتب جغرافية أو درس الجغرافية في المدارس، إنما اتسعت وسائل اكتساب المعلومة لينالها كل إنسان.

فإذا كانت قاعدة اللطف تقضي بلزوم بلوغ الاماكن جميعا حجج الإسلام، بمقتضى القاعدة لأن من لم تبلغهم الدعوة لا يتصور إنصافا معاقبتهم على دعواه لاسيما أن قاعدة اللطف العقلية لا يمكن أن يستثنى منها بشر دون بشر..

وهنا يتساءل المظفر (فلماذا وصلتنا الحجة ولم تصل إلى غيرنا؟).

وبمقتضى قاعدة اللطف: فإذا فرض أن الحجة لم تصل إلى فرد واحد من الناس -وبقي على جهله- فإن اللازم على الله تعالى أن يوصل إليه الحجة بأي طريق فهل هذا الفرض حكم يقيني، وهل هو حاصل عمليا؟ ان هذه الاسئلة لايبدو فيها المظفر فاقداً لليقين تماما انما اوردها اشكالات تحتاج الى ايضاح ونريد يبرهن

لذلك يرى المظفر أن على الكلاميين من علماء الشيعة أن يحلوا هذه المشكلة وإلا ستبقى قاعدتهم مهددة، وما يبتنى عليها مهدد أيضا.[١٣]

ويصرح: بأنه لم يجد في كتب الأصحاب ما يشفي الغليل في معالجة مثل هذه الفجوة بين المقدمة والنتائج ثم يستدرك فيقول (نعم العقل يحكم بان الله تعالى لابد ان يلطف بعباده ، والشرائع نوع اللطف و ان نصب الامام في كل عصرمن اللطف بنحو العموم مسلمة و ضرورية لكن الشك في ضغرياتها اذ قد يكون اللطف في ان يجعل الله البشر مختلفين في اديانهم و في طرائقهم وهو الواقع فعلا من اول الازمان الى يومنا هذا ...[١٤].

يقول : (مرجع كلامنا الصريح ان القاعدة ككبرى عقلية مسلمة... انما النقاش في تشخيص ما يكون لطفا)

ثم يقول (أنا أعترف بذلك وفي قلبي ما فيه مما يحز به) حزنا على عدم التصدي لمثل هذا المشكل فأما أن يعالج الموضوع أو يتنازلوا عن قاعدة اللطف بحدودها الشديدة فلعلهم يستطيعون تخفيفها بما يجوز استثناء من القاعدة عدم الإلزام في اعتبار بعض الناس من وجوب تبليغهم دعوة الرسالة أما بعنوان ثانوي اواعتبار القاعدة (حكم أغلبي وليس كليا) أو بأي أمر آخر.

الأمر الثاني الذي يزلزل قاعدة اللطف إشكال ينقله المظفر عن الآخرين ثم يجيب عن بعض أجزائه والإشكال هو - أن مسألة اختفاء الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) هذه المدة الطويلة لا تنسجم مع قاعدة اللطف إذ أنها تقتضي:

أ- إبلاغ كل أحد دعوة الإمام وإبلاغهم الدليل على وجوده.

ب- القاعدة تقضي أن ينصب إمام موجود لهداية البشر فما الفائدة في وجوده مختفيا لا يصل إليه أحد حتى أتباعه ومخلصيه رغم كل ذلك التراكم من الضلالات والمظالم والمفاسد.

والاعتذار الذي يجدر الاخذ به لتفسير هذا الاختفاء كما يذكره المظفر ناقلا له عن بعض الدارسين بأن الناس هم الذين سببوا اختفاءه فهم الذين حرموا أنفسهم بأنفسهم من بركاته وعطائه وعلى تقدير أن هذا الاعتذار سليم فذلك ذنب أولئك الذين عرفوا ثم انحرفوا فما ذنب غيرهم من القرون المتطاولة لاسيما وإن قاعدة العدل الكبرى تنص بأن (لا تزر وازرة وزر اخرى).ولو قال المعتذر: إن الناس في كل القرون لو ظهر بينهم لقتلوه ولم يتبعوه فهذا تجن وتحكم وتعسف، إضافة لما يحتاجه هذا الحكم من الاستناد أما إلى تجربة أو إلى علم غيب.

ودليل مانعة الخلو يقرر: إذا كانت القاعدة تقتضي بأن هداية البشر لا تتم الا بنصب الإمام وانحصر النصب بالإمام المنتظر:

١- فإما أن يهيئ الله السبيل لتأمين ظهوره.

٢- أو يعيّن من يظهر في شخص غيره.

٣- إذ أن القاعدة باطلة.[١٥]

وكان جواب المظفر على هذا الإشكال على طوله:

١- إن القاعدة أساسا من صنع الكلاميين وتدبرهم وإنهم أرادوا أن يطبقوا كل شيء في العقيدة على قاعدة عقلية وفي تقدير المظفر أنهم أخفقوا يقول وهي تحكم على الله بغير ضرورة [١٦]

٢- إن قاعدة التعدية والتوسع من الجزء إلى الكل تحكم بغير ضرورة ولا حاجة لأن المخلوقات عند الله سواء من جهة الرحمة واللطف فإذا لطف ببعض دون بعض كان ذلك خلافا للحكمة الإلهية والعدل المطلق.

نعم: ربما لا يمانع العقل من أن الله لابد أن يلطف بعباده والشرائع نوع من اللطف لكن من أين لنا أن نعلم أن إبلاغ كل أحد بالشرائع هو من اللطف الواجب على الله؟ومن أين نعلم: أن اللطف قد انحصر بإبلاغ الإسلام لكل من في الوجود وإن من اللطف نصب الإمام وضرورة ظهوره في كل عصر ومصر. لذلك: فالقاعدة بنحو العموم مسلمة ضرورية لكن الشك حاصل في صغرياتها فقد يكون من اللطف بالبشر أن يجعلهم مختلفين في أديانهم متباينين في طرائقهم - كما هو الواقع من أول الأزمان إلى عصرنا الحاضر، وقد يكون من اللطف أن يختفي الإمام وليس من اللطف يظهر:

والاستنتاج الخطير عند المظفر إن الكلاميين: يريدون للدين أن يؤخذ من بوابة العقل، والدين لا يصاب بالعقول، إنما يؤخذ من التربية والتلقين والتكرار.ومسألة العقيدة في حضور وعصمته وغيبة الإمام - يكتفى فيه بالنص.

كل دين إذا شددناه للمسائل العقلية والعلمية فو مهدد بخطر عظيم (كما وقع في عصر انتقال الفلسفة أول مرة إلى العالم الإسلامي وكما يقع في عصرنا بانتقال العلوم الحديثة).وقد وعد المظفر (أن يعود إلى هذا الموضوع في فرصة أخرى) شعورا منه بأنه لم يكتمل برهانيا.ثم يقول في الختام مصرحا إني لا أثق بقاعدة اللطف للاستدلال بها على مسائل النبوة والإمامة وأرجو مخلصا أن أكون مخطئا في هذا الشك.(١٧)

التشيع في العراق وإيران والحكومات

في هذا الفصل يشخص الشيخ المظفر إحدى أبرز الظواهر الاساسية في البنية العقائدية الشيعية تلك هي (إشكالية تحقق الدولة الشرعية) ففي الإطار النظري للتشيع فإن الحكومة الشرعية هي حكومة المعصوم، أو من ينوب عنه نيابة خاصة، أو عامة والتي تتم بتفويض عام. كالممنوح للمجتهد العادل المبسوط اليد وعليه فإن كل رئيس حكومة إذا لم يكن إماما أو نائبا معينا من الإمام ولو كان عادلا فحكومته غير شرعية وعليه فلا تصح معاملته، ولا تجب طاعته، وتعد أموال الدولة -في ولايته- مالا يجوز للناس ان يأخذوا منه حاجتهم دون اذن منه، ولايجوز للناس القتال تحت لوائه

والدفاع عن دولته،ومتى قدر الانسان على عدم دفع الضرائب له جاز له ذلك.

بعد ذلك يقول المظفر وهذا الحكم يفتي به جميع العلماء الشيعة.

والأشد أن هذا الحكم يشمل الحكومات الشيعية وغير الشيعية على السواء فالحاكم وإن كان شيعيا وعادلا فهو مع ذلك مغتصب للمنصب

ثم يقول: إن الواقع المعاصر وعلى الأقل في العراق وإيران يكشف عن أنه لا يمكن للمجتهد العادل أن يرأس الحكومة، فكيف نتعامل مع هذه الحكومات غير الشرعية؟ مع اضطرارنا إليها والحكم بحرمتها المجمع عليه(١٥).

والأشد أن: رجال الشيعة حاليا يشاركون في الحكومات غير الشرعية ويرون أن المشاركة ضرورة تحقيقا لمصالح الشيعة أنفسهم لكي لا يغلبوا على أمرهم ثم يقول ما نصه (لقد أصبح الحكم في الفقه الجعفري والحال هذه حكما غير واقعي، لا يمكن تطبيقه على الحالة الموجودة، ولا يطبق إلا بظهور الإمام المنتظر).[١٨]

وبالإصرار على تطبيقه -في عصر ما قبل الظهور- تتولد مشاكل كثيرة لا نهاية لها، لأنه لا يمكن للعلماء أن يتنازلوا عن هذا الحكم، إذ لا طريق فقهي لهم، والحكم مما يستحيل تطبيقه لذلك يقع التناقض بين الواقع والتمكن من جهة وبين الحكم أو الفتوى من جهة أخرى.

وتختلف هذه الحكومات عما كانت عليه الدولة العثمانية التي كانت توسم (بالخلافة)، وعملها وإن كان عملا غير شرعي بنظر الشيعة إلا أن هناك رخصة من الأئمة (ع) بصحة المعاملات في ظل حكومة تعمل على وفق مذهب من مذاهب أهل السنة بيد أن هذه الرخصة لا تنطبق على الحكومات الحالية لأنها لا تستند حصرا على مذهب إسلامي ولو كان مذهبا سنيا.[١٩]

يقول المظفر: هناك (فترات تاريخية) نصب بعض الفقهاء أنفسهم في عهد الصفويين (فقيها متوليا للأمر)، وجعل الفقيه السلطان نائبا عنه، يصدر كل القوانين باسم المجتهد الجامع للشرائط.

ثم يعقب بالقول: (وما أدري هل كان ذلك حقيقة أو خدعة من السلطان يومئذ) [٢٠].

ومن المشكلات التي يعرض لها الشيخ أن المدنية الحديثة تقضي بضرورة

استعمال أشياء لا يقرها الفقه الجعفري كالغناء والموسيقى، فلا العلماء يسعهم أن يتنازلوا ولا الناس يسعهم ان يتبعوا العلماء في أقوالهم بالمنع فكيف السبيل؟

أما الفصل الخامس فقد جاء بعنوان:

العلماء والتقليد

سوف لن أتناول كل ما جاء في هذا الفصل، لبقاء الدواعي التي لأجلها حجب المظفر هذه الرسالة..

وأقتصر على البعض منها

- المسلم فيه أن المجتهدين في عرف الفقه الجعفري (حكام) بشرط تحقق صفة العدالة (وهي ليست من نمط عدالة إمام الجماعة، والشاهد) بل المراد العدالة بأعلى درجاتها طبقا لما ورد في الرواية (تاركا لهواه متبعا لأمر مولاه) لكنه في نهاية الفقرة يقول (وان كان العلماء مختلفين في اعطاء مثل هذه السلطة المطلقة للمجتهد.

والإشكال: كيف يتم التشخيص؟ فإذا سهلت معرفة الاجتهاد فليس من السهل معرفة عدالة الشخص.. فكيف يتحول الحكم الفقهي إلى برنامج عمل.

- وعلى هذا الأصل من العدالة يقتضي أن لا يكون هناك تنافس في الوصول إلى المنصب الرباني (قيادة الأمة من العلماء العدول الجامعين للشرائط) والحال انه موجود وقد شاهدنا ما وقع في عصرنا.

ثم يذكر شواهد على التنافس وينتهي إلى ضرورة اشتراط شرط ثالث فوق الاجتهاد والعدالة (ليس منتزعا من الروايات) إنما شرط فرضه الواقع، أن يكون المجتهد متمكنا في سياسة الناس وجمع الدعاة..

فإنْ توفر هذا الشرط فلا ضرورة في أن يكون في أعلى درجات الاجتهاد، بل لا يشترط أن يكون مجتهدا حقا كما لا يجب أن يكون كما في أعلى درجات العدالة ولا حتى عادلا حقا.

ويثبت المظفر في ذلك عدة حقائق ساتطرق الى بعض منها :

١- ان التوسع في المرجعية الشعبية ، وجبي الاموال اليها بصورة منتظمة وكثيرة حصل في عهد السيد ميرزا حسن الشيرازي ،فصار للزعيم الديني شأن يفوق الملوك ، واول ما ظهر ذلك في عهد الوحيد البهبهاني

(١٢٠٨ هـ) ،ثم الشيخ جعفر كاشف الغطاء و السيد بحر العلوم.

٢- ليس هناك جرأة للحديث عن مظاهر (غير محتملة) داخل المؤسسة الدينية الشعبية في كتاب او صحيفة ،الا اذا ضحى المتحدث بكل شيء حتى دينهم فيصبحوا كفاراً بعين الناس ،وهذا لايساعد على تنقية ذلك الوسط من التلاعب و استغلاله للمصالح الشخصية.

٣- من الضروري جمع طبقة ممن الفضلاء للنظر فيمن يستحق التقليد من الصفات العلمية و العملية.

٤- اشار الى ان السياسة تهدف الى تحطيم هذه المؤسسة الدينية وزعامتها التي تخشاها اشد خشية.

٥- ان التصادم بين الفكر الديني ومظاهر المدنية الحديثة ،والمبادئ الهدامة ينبغي ان يجعل من المشتغلين في الوسط الديني اعلى انموذج للعفة و لاينبغي اعتماد سياسة اسدال الستار، ولايجوز ان يبقى القادة الدينيون في اجواء الجيل السابق من الاهتمامات فهذا جيل جديد له ظروفه واهتماماته و تطلعاته ولابد من معالجة عيوبنا من الداخل.

منشأ التفكير بكلية الفقه

في عام ١٩٥٠ كتب المظفر هذه الرسالة التي شخص مشكلات عصره فقد كتب الرسالة عام ١٣٦٩هـ :

- أن المدنية الحديثة التي تغزو العالم الاسلامي، والذي يحفل بهشاشة الشخصية إسلامية الحالية سيجبر الجيل القادم على الانتماء لقيم تلك المدنية الغربية.
- يرى المظفر أن المدنية الغربية الحديثة دخلت العراق (١٩٢١) بقيام الدولة العراقية الحديثة و اصطدمت مع التراث الاسلامي.
- بما أن كل أربعين سنة ينقرض جيل ليوجد جيل آخر فإنه سيكون عام

(١٩٦٢) عام نهاية الجيل المخضرم الحائر بين القديم والجديد، وسينهض جيل جديد يسقط الحيرة منه فأما ان وينتمي للدين. او ينتمي للدنية الغربية

ففي عام (١٩٥٠) دق المظفر ناقوس التحذير،فقال:

- لم تبق لنا إلا فرصة (١٢) سنة للعمل لإنشاء جيل إسلامي.
- إذا بقينا على حالنا، سوف لن يشاهد الجيل الجديد (من يتأسى به من الاتقياء).
- ان أية إعداد من الأميين وأشباههم والبسطاء لا قيمة لهم مادام أهل النفوذ سيكونون مع الحداثة.
- لا يمكن أن نقوم بأي إصلاح مالم نقضي على عيوبنا.

ثم يذكر عوائق التفكير بالإصلاح:

١- اليأس (المتمكن في النفوس) لاسيما اذا رأى الناس الإصلاح ضربا من المحال.

٢- الخوف والجُبْن: ان أهل الدين يشعرون شعورا عميقا بالمغلوبية أمام جيوش الحكومات الحاضرة من جهة، ومن الدعوة الحديثة للتجدد.

لاسيما في النجف ولاسيما الإيرانيين وغيرهم من الوافدين باعتبارهم أجانب -بعرف الحكومة- مما يوفر سببا لإخراجهم من البلاد -كما حدث بداية تأسيس الدولة العراقية-.

ثم يقول: (على أن الخوف ليس من الحكومة فقط بل بالدرجة الأولى بعضهم من بعض، بل يخشى من يتصدى ويتدخل في الشؤون العامة أن يعتبره خصومه -من أهل العلم- مجدد ومنحرف عن الجادة فيكون سبيلا للطعن فيه عند السذّج من العوام).

٣- الشعور بالضعف: لأن أرزاق -طلب العلم- على الموسرين فيكون عند كل واحد شعور بالضعف والمسكنة وهذا يجبره على مجاراة الناس - بل مجاراة كل أحد.

٤- انعدام الثقة: لأسباب متعددة تكون سوء الظن عند بعض أهل العلم ببعضهم، واتهام بعضهم للآخر بسوء القصد حتى انعدمت الثقة وأصبح كل ينظر للآخر بعين الريبة والشك لاسيما للمتصدي للأمور العامة.

٥- التفرق بين اهل العلم ، وتحول الخلاف العلمي الى كتل و التفرق وانتماءات و ضرب لذلك مثل المشروطة و المستبدة ،بل تصارع الناس مع او ضد (الفتوى بتحريم قراءة خطيب وقضية الشعائر بين السيد محسن الامين وخصومه ، ومن العيوب التي شخصها الجهل بالاوضاع الحاضرة.

٦- الجهل بالأوضاع الحاضرة: مطالعة الجرائد والمجلات والكتب الجديدة من الأشياء المستنكرة البغيضة التي لا تليق برجل الدين.

إن الرجل منا عندما يرى من نفسه القدرة على فهم دقائق المسائل العلمية والقوة على المحاورات في البحوث الفقهية فإنه قد يظن من نفسه أنه قادر على فهم كل أمر يعرض على فكره حتى لو كان سياسيا وعندها يصبح جاهلا جهلا مركبا بالشؤون الاجتماعية.

٧- الجمود: الإنسان نزّاع إلى التمسك بالموروث ولكن ذلك على محموده قد يحجب رؤية نافعة و مجدية للتطوير و تحديث الافكار و المناهج.

الخاتمة

- يسود اعتقاد ان لحظات تأملية انتابت الشيخ المظفر مما ادت به الى استعراض مجموعة من المشكلات الفكرية و العملية ،على سبيل المراجعة
- دافع الشيخ عن مفهوم التقنية و اعتبرها من الضرورات التي لا تحتاج الى نص شرعي لاثباتها رغم وجوده
- ان من اعسر الصعوبات الحياد و الموضوعية في جانب الاعتقادات و فكر الانتماء
- رغم الصراحة العقيمة كان الشيخ اشد حرصاً على دينه و على التشييع و عن الحكم الشرعي
- لم يستنكر الشيخ الدعوة الى المواطنة والوطنية
- ان مناقشة المظفر لقاعدة اللطف كانت على الصغريات و المصاديق
- دعا المظفر الى اهتبار طريق التربية لترسيخ العقائد،موظفاً مأثورة (الدين لايصاب بالعقول)
- ابراز الشيخ الموقف التقليدي عن الشيعة من الحكومات غير الشرعية و مال النظرية ولاية الفقيه المطلقة

،وطالب مجمل التعارض بين ضرورة العمل في دوائر الدولة وبين عدم شرعيتها

- طالب الشيخ بادراك علمي لتشكيل الموقف الشرعي مما جلبته مدنية اوربا (كالموسيقى والتعامل مع اهل الكتاب)
- طلب الشيخ ان يضاف الشرائط المرجعية (الاعلم/العادل) الاكثر قدرة على ممارسة التأثير على الناس و الاكثر خبرة بالاوضاع العالمية

- في الرسالة :كثير من الوقائع والاحداث و المواقف الغريبة عرضها كأمثلة
- لدى الشيخ المظفر رؤية استشراقية مستقبلية لم تتحقق كما تصور فهو يرى ان الجيل المتدين موجود حتى تشكيل الدولة العراقية في عام ١٩٢١ و يرى ان زمن الجيل ٤٠ سنة ،فيقول انه بعد عام ١٩٦٠سينشأ جيل يقع حائراً بين المدنية والشرع على افتراض عدم التوائم و سيكون جيل القرن الحادي والعشرين جيلاً غير متدين .

هوامش البحث

١- ظ:مقدمة /الندوة العلمية التي اقامتها جامعة الكوفة للمظفر عام ١٩٩٧

٢- د.عبد الهادي الحكيم:حوزة النجف الاشرف ص٨٥

٣- الندوة العلمية مصدر سابق ص٥

٤- ظ:انوار الاصول ٢١٤/١

٥- رسالة اراء صريحة ص٢

٦- م.ن ص٢

٧- م.ن ص٢

٨- م.ن ص٢

٩- م.ن :ص٣ (يتصرف)

١٠- م.ن ص٦

١١- م.ن ص٨

١٢- م.ن ص٩

١٣- م.ن ص١٦

١٤- م.ن ص١٣

١٥- م. ن ص١٤

١٦- م.ن ص١٤

١٧- م.ن ص١٥

١٨- م.ن ١٧

١٩- م.ن ص١٩

٢٠- م.ن ص١٩

٢١- م.ن ص٢٠

٢٢- م.ن ص٢٠